

الآيات المتعلقة بالنبي (ﷺ) في فواتح السور المبتدئة بالقسم _دراسة نصية_

أ.م.د. أمجد كامل عبدالقادر

المُقدِّمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الميامين ، وعلى من سار على نهجهم إلى يوم الدين ، وبعد...
فإن في القرآن الكريم كنوزاً ضخمة من الإشارات واللطائف والإيحاءات والمعاني والحقائق والدلالات ، إذ يُقبل العلماء على القرآن الكريم ، ويستمتعون بما يفتح به الله عليهم من تلك اللطائف والمعاني والحقائق ، وقد صدق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في وصفه القرآن ، إذ يقول: ((فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم... وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه ، من قال به صدق ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم))^(١) .

ويأتي هذا المؤتمر المبارك في كلية الآداب/جامعة ذي قار ليسلط الضوء على دراسة النص ، وبيان استعمالاته وأساليبه المتعددة ، والقرآن الكريم هو الكتاب اللغوي الأول ، إذ نزل هذا الكتاب المبارك على نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) ، وتعاملت آيات خطابه عليه السلام مع شخصيته تعاملًا مميزًا عن الآيات التي خاطبت الأنبياء (عليهم السلام) أو الشخصيات القرآنية الأخرى ، فعلى سبيل المثال إذا أراد الله أن يخاطب نبيا من أنبيائه فإنه يناديه باسمه الصريح ، كقوله عز وجل : ((فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ))^(٢) ، وقوله : ((قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ))^(٣) ، وقوله : ((وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ))^(٤) ، وغير ذلك من الآيات المباركة ، أما إذا أراد القرآن أن يخاطب النبي محمدا (صلى الله عليه وآله) فإنه يناديه بأشرف الألقاب وأحسنها ولا يناديه (يا محمد) ، بل يقول له (يا أيها النبي) أو (يا أيها الرسول)، كقوله عز وجل : ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ))^(٥) ، وقوله : ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا))^(٦) ، وقوله : ((يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ))^(٧) ، وذلك من عظيم الخطاب القرآني تجاه شخصية هذا النبي الكريم.

وقد لفت انتباهي ظاهرة نصية استقصيتها في فواتح السور القرآنية المباركة ، فوجدت ثلاث سور ابتدأت بالقسم ليكون جوابه شيئاً متعلقاً بشخصية الرسول أو توجيهها ربانياً له ، وهناك علاقة بين المقسم به وبين الجواب المتعلق بهذه الشخصية المباركة ، وهذا من جمال التعبير القرآني وأسلوب من أساليبه المعجزة ، وهذه السور هي : (النجم ، والقلم ، والضحي) ، لذا خصصت لكل سورة مبحثاً ، تفصّيت فيه النص القرآني ، إذ كان النص هو محور الدراسة ، فأوضحت من خلاله جمال العلاقة بين القسم وجوابه ، وارتباط النصوص بعضها ببعض ، وهي مسألة - كما أزعج - لم ينتبه لها كثير من المفسرين واللغويين - غفر الله لهم - إذ لا بد من علاقة ارتباطية ودلالية بين القسم بالنجم مثلاً دون غيره من الأقسام التي أقسم تعالى بها في قرآنه المجيد وبين جوابه المتعلق بشخص الرسول الكريم ، وهذا ما حاول البحث أن يكشف عنه ، وحسبي في ذلك أنني اجتهد وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المبحث الأول : القسم بـ (النجم إذا هوى)

تبتدئ سورة النجم بالقسم بـ (النجم) ، إذ يقسم الله تعالى بالنجم الهاوي ، فيقول ((وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ)) (٨) ، ليكون جواب القسم : ((مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ)) (٩) ، والمتأمل في هذا النص القرآني المبارك يتبادر إلى ذهنه لأول وهلة ما علاقة النجم وهويه بالنبي (ﷺ) ؟ وبعبارة أخرى لماذا أقسم الله تعالى بالنجم وكان جواب القسم شيئاً متعلقاً بشخصية النبي؟

وقد تأملت في هذا النص كثيراً ، فوجدت أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين القسم بالنجم وبين قوله ((ما ضل صاحبكم وما غوى)) ، إذ ينبغي أولاً أن نعرف الاستعمال القرآني للفظ (النجم) مفرداً معرباً بـ (ال) ، فقد ورد هذا اللفظ أربع مرات في القرآن الكريم هي:

١- قوله تعالى : ((وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)) النحل : ١٥-١٦.

٢- قوله تعالى : ((الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ، الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ، وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)) الرحمن ١-٦.

٣- قوله تعالى في سورتنا هنا : ((وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ)) النجم : ١٠.

٤- قوله تعالى : ((وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ)) الطارق : ١-٣.

ومن ينعم النظر في هذه الآيات المباركات يجد أن لفظ (النجم) الوارد فيها قد ذكر في مواطن تشريف وتكريم ، فقوله عز وجل : ((وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)) قد ذكر فيه (النجم) ليدل التائهين إلى الطريق الصحيح ، والسبيل القويم ، فهو علامة للهداية والاستئناس ، إذ كانت قریش

تعلم بمواقع النجوم لتَهْتَدِي بها في ظلمات البر والبحر ، ومن المعلوم أن كل من يسير في البحر إنما يَهْتَدِي بالنجم ، والقرآن هنا يتحدث عن النجم كتسخير مختص ، فلم يدخله في التسخيرات الأخرى المتعددة ، بل أفرد له عظمة نفعه واهتداء السائرين به ، فكل نجم يقود لنجم آخر ، وهناك نجوم لم يصلنا ضوءها بعد ، وننتفع بآثارها من خلال غيرها.

وقد فضل القرآن الكريم هذا الأسلوب في التعبير (وبالنجم هم يَهْتَدُونَ) من بين ثلاثة أساليب يمكن أن تؤدي المعنى ، هي : (يَهْتَدُونَ بالنجم) ، و (بالنجم يَهْتَدُونَ) ، والثالث هو الذي استعمله الحق فقال : (وبالنجم هم يَهْتَدُونَ) ، وذلك تأكيد على خبرة قريش بمواقع النجوم لأنها تسافر كل عام مرتين ، فهم أكثر من غيرهم خبرة في مواقع النجوم والاهتداء بها ، فذلك هم أعلم بشخصية الرسول وصدقه وأمانته أكثر من باقي العرب ، لأنه عاش معهم وترى في أكنافهم ، والضمير (هم) جاء ليعطي خصوصيتين : الأولى : إنهم يَهْتَدُونَ بالنجم لا بغيره ، والثانية : إن قريشاً تَهْتَدِي بالنجم ، وهناك من القبائل العربية لا تستطيع أن تَهْتَدِي به.

قال الزمخشري : ((وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) مخرج عن سنن الخطاب ، مقدم فيه (النجم) ، مقم فيه (هم) ، كأنه قيل : وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يَهْتَدُونَ ، فمن المراد ب (هُم) ؟ قلت : كأنه أراد قريشاً : كان لهم اهتداء بالنجوم في مسائرهم ، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم ، فكان الشكر أوجب عليهم ، والاعتبار ألزم لهم ، فخصصوا))^(١٠) .

إذاً (النجم) في هذا الاستعمال القرآني قد ذكر في موطن تشريف وتكريم ، فهو علامة هداية ، يستدل بها الذين ضلوا الطريق ليصلوا إلى بر الأمان ، وهذا يفسر لنا دلالة القسم بالنجم في فاتحة سورة النجم بحيث يكون جواب القسم متعلقاً بالرسول (ﷺ) .

ولنتأمل النص القرآني الآخر الذي ورد فيه لفظ (النجم) وهو قوله تعالى : ((وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)) ، فلفظ النجم هنا ورد في أعلى مراتب التكريم ، فمن التشريف بمكان أن يذكر المخلوق في أعلى مقامات العبودية وهي صفة السجود ، فهي عبادة من اعظم القربات إلى الله تعالى .

وقد اختلف المفسرون واللغويون في معنى (النجم) هنا على قولين :

الأول: (النجم) ما نبت على وجه الأرض مما ليس له ساق، وهو قول ابن عباس وابن جبير والكلبي وسفيان الثوري وغيرهم^(١١) .

وقد نص من اللغويين على تفسير (النجم) بأنه ما لا ساق له من النبات الفراء^(١٢) ، وأبو عبيدة^(١٣) ، وابن قتيبة^(١٤) .

والثاني: النجم هو نجم السماء ، وهذا قول مجاهد والحسن البصري وقتادة السدوسي^(١٥) ، ولم أجد من اللغويين من قال به سوى حكاية بعضهم له ، قال الزجاج : ((وقد قيل إن النجم أيضا يراد به النجوم وهذا جائز أن يكون ، لأن الله عز وجل قد أعلمنا أن النجم يسجد فقال : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ)^(١٦) ، ويجوز أن يكون النجم ههنا يعني به: ما نبت على وجه الأرض وما طلع من نجوم السماء، يقال لكل ما طلع: قد نجم))^(١٧).

وأياً كان الخلاف في معنى (النجم) الوارد في سورة الرحمن فإنه سيعطينا دلالة التكريم والتشريف ، فسواء أكان معنى النجم هو النبات الذي لا ساق له وهذا يتناسب مع ما بعده وهو قوله : ((والنجم والشجر يسجدان)) فالنجم مما لا ساق له والشجر الذي له ساق ، أم كان (النجم) هو نجم السماء وهذا يتناسب مع ما قبله من الآيات الكونية ((الشمس والقمر بحسبان)) ، فكل هذه المعاني وردت في سياق التكريم ، فضلا عن أن نجم الأرض وهو النبات الذي لا ساق له ونجم السماء المعروف لهما من الفضل الكبير على بني البشر ، فكذا هو فضل النبي أعظم وأرقى من هذا النجم الوارد هنا في هذا النص المبارك .

وإذا تأملنا النص الآخر من النصوص التي ورد فيها لفظ (النجم) وهو قوله عز وجل ((وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ)) ، لوجدنا أن النجم هنا قد ذكر للتشريف والتكريم كذلك ، إذ أقسم الله تعالى هنا بالسماء وبالنجم الذي يطرق ليلا ، وجاء أسلوب الاستفهام (وما أدراك ما الطارق) ليدل على تفخيم شأن هذا النجم وتعظيمه وقد وصف النجم بالثاقب أي المضيء العالي المرتفع .

وقيل: إن هذا النجم الثاقب هو السلاح الذي ترمى به الشياطين^(١٨) ، وقال بعض المفسرين هو نجم المعرفة والعلم الثاقب لظلمة الجهل والضلال^(١٩) .

ومن هذه المعاني المتعددة التي بينها للفظ (النجم) الواردة في هذه المواضع الثلاثة من القرآن الكريم تتبين لنا العلاقة الترابطية بين المقسم به والمقسم عليه ، أي إن الله تعالى أقسم بالنجم في سورة النجم (والنجم إذا هوى) ، فكان جواب القسم متعلقا بشخص الرسول الكريم ، وهو قوله (ما ضل صاحبكم وما غوى) ، فنفي الضلال عنه عليه الصلاة والسلام يناسب القسم بالنجم لأن النجم كما رأينا هو ما يهتدى به في ظلمات البر والبحر وهو ما ينتفع به في الأرض وفي السماء ، وهو علامة على العلم المعرفة ، فكل هذه المقامات العالية إنما تناسب الشخصية المقسم عليها وهي شخصية النبي ، فهو نجم يُهتدى به ويُنتفع بعلمه ونوره وهو رسول الله إلى

الناس كافة ليدلهم على توحيد الله في الوهيته وربوبيته ،فضلا عن أن القرآن قد عظم القسم بمواقع النجوم فقال تعالى : ((فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)) (٢٠) .

ومن جمال التناسق العددي في القرآن الكريم هنا ان لفظ (النجم) قد ورد مفردا معرفا بـ(ال) أربع مرات ، وهو متناسب تماما مع اسم النبي (محمد) ، إذ ورد أربع مرات كذلك في كتاب الله عز وجل ، فهو بحق نجم القرآن وآية من آيات الله ليخرج الناس من الظلمات والنور بأذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد .

ونختتم هذا المبحث بكلام الدكتورة عائشة بنت الشاطي إذ تتحدث عن القسم بالواو مع النجم الهاوي فتقول : ((الفت بالواو إلى ظاهرة كونية مشهودة ، يراها الناس في النجم إذا هوى فيلمحون على الأفق ما يبدو على مد البصر من اتصال السماء بالأرض بخيط من النور . ظاهرة كونية تتكرر على مرأى منهم ومشهد ، فلا يجدون فيها ما هو موضع جدل أو إنكار ، ففيم العجب وفيم المماراة والإنكار للظاهرة الغيبية المماثلة ، إذ يتجلى نور الوحي من الأفق الأعلى فيدنو ويتدلى حتى يصل إلى المصطفى على هذه الأرض ؟)) (٢١) .

المبحث الثاني : القسم بد ن والقلم

تبتدئ سورة القلم المباركة بحرف من الحروف المقطعة ، وهو الحرف (ن) ، فيقول الله تعالى : ((ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)) (٢٢) ، وقد كثر كلام المفسرين حول معنى هذه الحروف المقطعة ، إذ ذكروا لها معاني عديدة ، ومن أهم معانيها أنها حروف للقسم ، أقسم الله تعالى بها ليبين للعرب أن هذا القرآن هو من جنس كلامهم وأحرفهم التي ينظمون بها (٢٣) ، وهذه الحروف المقطعة هي من حروف المعاني ؛ لأن لها معنى تدل عليه ، وإن اختلف العلماء في تحديد هذا المعنى وفي بيان ما تدل عليه .

وبالبحث لا يتفق مع الذين عدّوا هذه الحروف من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه (٢٤) ، فهؤلاء العلماء — غفر الله لهم — كانوا يقفون عند هذه الأحرف ، فيقولون : الله أعلم بمراده منها ، وهو الذي استأثر بالعلم بها ، ونحن لانتظر فيها !

إن الله تعالى قد أوجب علينا النظر في القرآن وتدبره وحسن فهمه ، والقرآن أنزله الله سبحانه بلسان عربي مبين ، ولم يخاطبنا فيه بما لا يمكن أن نفهمه أو نعرف معناه ، ونحن الباحثين يجب علينا أن نتدبر القرآن ، وأن نقول بما هدانا الله إليه من معانيه ، ونقدّم هذا التأويل من باب الاجتهاد ، فقد يكون صواباً فنحمد الله تعالى عليه ، وقد يكون خطأ فنستغفر الله منه .

واللافت للنظر هنا في هذه السورة المباركة المبتدئة بالحرف (ن) المفرد ، ان هذا الحرف لم يأتي مكرراً في السور التي ابتدأت بالأحرف المقطعة ، فهناك ثلاث سور ابتدأت بحرف مفرد هي : (ص ، و ، ق ، و ن) ، فالحرف (ص) ورد مثلاً مكرراً في سورة مريم (كهيعص) ، والحرف (ق) ورد في سورة الشورى مكرراً (عسق) ، أما (ن) فلم يرد الا في هذه السورة المباركة ، فضلاً عن أن معنى نون متعدد عند المفسرين ، فمنهم من قال : إنه الحوت الكبير ولذلك سمى القرآن يونس (عليه السلام) بـ(ذا النون) ، أي صاحب الحوت ، ومنهم من قال : هو الدواة التي تحتوي على الحبر الذي يكتب القلم به^(٢٥).

وقال بعضهم : إن معنى (ن) هو الرحمن ؛ لأن هذه الأحرف المقطعة إنما هي أسماء الله تعالى^(٢٦) ، وتفسير (ن) بالرحمن يتناسب مع جواب القسم الذي يتعلق بالرسول (ﷺ) ، فهو رحمة الله للعالمين ، ومهما تعددت الأقوال في تفسير هذا الحرف ، فإنه لا بد له من معنى يتناسب والقسم بالقلم ، وسيبقى الباحثون ينظرون إلى النص القرآني المبارك نظرات متجددة ، فكل جيل يجد في المعنى القرآني ، ما لم يجده السابقون ، وهذا سر من أسرار الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

ثم يقسم الله تعالى بالقلم والكتابة بقوله : ((ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)) ، والعلاقة هنا معلومة وواضحة بين الحرف (ن) بوصفه أحد أحرف العربية وبين القلم والكتابة ، والقسم بالقلم يعني القسم بأشرف آلة في الوجود ، إذ به كتب القرآن الكريم ، وبه قيّد الدين ، واثبتت به الشريعة ، وحفظت به العلوم^(٢٧) ، فموضع القسم بالقلم هنا إنما هو موضع تفخيم وتعظيم لشأنه ، والكتابة التي تسطر بها السطور أي الكتابة الكثيرة إنما تشير الى كلام الله او ما تكتبه الملائكة ، اذ جاء التعبير ب (وما يسطرون) ولم يقل (وما يكتبون) والفرق واضح بين التعبيرين ، فـ(ما يسطرون) تكون فيه الكتابة كثيرة ، أما (ما يكتبون) فأن الكتابة قد تكون حرفاً او حرفين او كلمة .

وقد جاءت هذه السورة المباركة لتؤكد حقيقة النبوة ، فسميت بـ(القلم) تأكيداً على اثره البالغ واصراراً على بيان قيمته ووزنه ، فهو اساس العلم ، اذ اقسم الله به لشرفه واثره العظيم على بني البشر ، وكأن القسم هنا يوحي الى العلم الحقيقي الذي اراد الله تعالى اثباته للمخلوق جميعاً في جواب هذا القسم العظيم ، ويقوي ذلك ان هذه السورة نزلت مباشرة بعد سورة العلق التي هي اول الوحي حيث بدأ بقوله تعالى : ((اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ))^(٢٨) ، وان يكون هذا الخطاب موجهاً للنبي الامي - الذي قدر الله ان يكون امياً لحكمة معينة - فقد بدأ الوحي بالقراءة والكتابة منبهاً الى اهمية العلم الذي جاء به الرسول .

وبعد هذا القسم العظيم الذي هيا النفس لاستقبال جوابه والحقيقة التي أراها الله تعالى من خلال قسمه بالقلم لا غيره من المخلوقات ، يثبت الله تعالى وينفي في آية قصيرة يبتدئ بها جواب القسم ((مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ))^(٢٩) ، فيثبت الله نعمته على نبيه في تعبير يوحى بالقربى والمودة حين يضيف الله سبحانه إلى ذاته (ربك) ، وينفي تلك الصفة المفتراة التي لا تجتمع مع نعمة الله على عبد نسبه إليه وقربه واصطفاه .

وللمتأمل هنا أن يجد العلاقة بين القسم بالقلم وجواب هذا القسم ، فكيف يكون مجنوناً من أوتي علماً غزيراً بنعمة الله عليه ؟ وكيف يكون مجنوناً من ينطق بأحسن البيان وبلغه ؟ وكيف يكون مجنوناً من يتكلم بهذه الحروف (نون) وأخواتها ويسطر هذا الكلام الرائع ؟ فهذا القرآن المسطور الذي كان النبي يقرؤه عليكم لا يتأتى من مجنون ، فالمجنون جاهل بالعلم وآله ، ولا عقل له ينظم فيه هذا النظم العجيب الذي ترون ، وهذه العلاقة بين القسم وجوابه تفسر لنا مجيء القسم بالقلم في أول السورة بحيث يكون جواب هذا القسم مبتدئاً بـ ((مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)) . ثم يتوالى جواب القسم معطوفاً بعضه على بعض في خطاب مباشر للنبي : ((وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ))^(٣٠) ، فالله تعالى اثبت بالقلم الأجر الموصول الذي لا ينقطع ولا ينتهي لنبيه ، وكأن في هذه الجملة إيناساً وتعويضاً وتسلياً للمخاطب الذي رماه أعداؤه بفرية الجنون ، فماذا يفقد من قال له ربه ((وان لك لأجراً غير ممنون)) في عطف ومودة وتكريم !؟

وما زال اثر القسم بـ (نون والقلم والكتابة) واضحاً في الجواب المعطوف : ((وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ))^(٣١) ، وهذه آية عظيمة تفسر لنا فلسفة الإسلام في الوجود ، فالقلم الذي أقسم الله به كتب هذه القاعدة التي ينبغي أن يلتزم بها كل من اتصف بصفة الإسلام ، وخطاب النبي هنا يدل على أنه قد استعلى على هذا الخلق العظيم ، وكل لغوي هنا يتذوق جمال المؤكدات التي ظهرت في هذه الآية والتي قبلها وهي : (إن) + لام التأكيد + النعت .

ولم يأت التعبير القرآني على (وانك صاحب خلق كريم) أو (أنت صاحب خلق عظيم) أو (وانك لذو خلق عظيم) ، بل جاء بـ (إن) المؤكدة التي تزيل الوهم والريب ، ثم بلام التأكيد التي دخلت على حرف الجر (على) ، وهذا الحرف إذا ما نظرنا إليه بمنظار لغوي فإنه يفيد الاستعلاء كما يقول اللغويون ، فخلق الرسول قد استعلى على الخلق العظيم حتى صار مصدراً يستقي منه النبلاء والعقلاء والعلماء أخلاقهم بنعمة الله عليهم ، ثم وصف الخلق بـ (العظيم) وهذا يتناسب مع عظمة المقسم به والمقسم عليه ، و(العظيم) يؤكد علو الخلق الذي جاء به الرسول فلم يوصف

الخلق هنا بالنبيل أو الكريم أو غيرهما من الأوصاف بل وصف بالعظمة ، وهذا ما يناسب المقام والسياق في هذا النص المبارك .

البحث الثالث : القسم بـ (الضحى والليل إذا سجي)

تتفق سورة الضحى مع السورتين السابقتين في أنها سور مكية ^(٣٢)، وإن القسم في هذه السور يكون بحرف القسم (الواو) ، وهذه ظاهرة أسلوبية في القرآن الكريم ، إذ يؤتى بواو القسم لتثبيت ما يروم القرآن إثباته وتحقيقه ، تقول الدكتورة عائشة بنت الشاطي : ((ننظر في ظاهرة أسلوبية أخرى من البيان القرآني ، وهي ظاهرة البدء بواو القسم ... والأصل في الواو أن تأتي درج الكلام للربط والعطف ، فإذا جاءت للقسم فإن لها الصدارة ، في مقام التوثيق لما يسبق إنكاره ، أو الإقرار والشهادة)) ^(٣٣) .

والضحى في اللغة يعني ارتفاع النهار ، ويطلق الضحى ويراد به الوقت من طلوع الشمس إلى أن يرتفع النهار وتبيض الشمس ^(٣٤) ، والمفسرون على قولين في معنى الضحى ^(٣٥) ، الذي أقسم الله به بقوله : ((وَالضُّحَى ، وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)) ^(٣٦) :

القول الأول : إن المراد به وقت الضحى ، الذي يمتد من طلوع الشمس إلى ارتفاع النهار .
القول الثاني : إنه يعني النهار كله ، واحتج أصحاب هذا الوجه بأن الضحى جعل في مقابلة الليل كله .

وان كنا نرجح القول الأول وهو وقت الضحى لأنه جعل مقابل الليل الساكن ، والليل الساكن هو جزء من الليل وليس الليل كله ، فإنه في جميع الأحوال المراد بالضحى هو وقت الضياء كله والنور الذي في تمامه ، فهذا قسم بزمان الضحى وضيائه وبالليل الساجي وظلامه وذلك للدلالة على إنعامه تعالى على رسوله (صلى الله عليه وآله) وإكرامه له وإعطائه ما يرضيه ، فأقسم الله بآيتين عظيمتين من آياته التي يراها خلقه في كل يوم وليلة ، فهناك مطابقة وارتباط واضح بين القسم والمقسم عليه ، بين القسم بنور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل ، وبين جواب القسم ((ما ودعك ربك وما قلى)) ، فنور الوحي الذي جاءه بعد فترة هي كظلمة الليل الساجي ، ويتبين هنا جمال الارتباط والتناسق في البيان القرآني بين المقسم به وهو زمان الضحى ، والليل التالي له ، وجواب القسم وهو ((ما ودعك ربك وما قلى)) المتضمن معنى النفي لكل ظن عند النبي (صلى الله عليه وسلم) من أن يكون الله قد تركه أو ابغضه .

وقد رأيت السيوطي رحمه الله تعالى قد التفت إلى هذا الارتباط بين القسم وجوابه المتعلق بالرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال : ((ومن لطائف القسم قوله والضحى والليل إذا سجي ، أقسم

تعالى على إنعامه على رسوله وإكرامه له وذلك متضمن لتصديقه له ، فهو قسم على صحة نبوته وعلى جزائه في الآخرة ، فهو قسم على النبوة والمعاد ، واقسم بأيتين عظيمتين من آياته ، وتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل المقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال اعداؤه ودع محمدا ربه فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه))^(٣٧) .

وهذه السورة المباركة على قصرها نجدها قائمة على الثنائيات في توجيه الخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) ، فالضحى فيه إشارة إلى النهار والليل الساجي فيه إشارة إلى الليل ، وجواب القسم (ما ودعك ربك وما قلى) فيه إشارة إلى أن الله تعالى ما ودع رسوله وما قلاه في الليل ولا في النهار ، ثم يتدرج الخطاب إلى النبي بالثنائيات :

الضحى — الليل

الآخرة — الأولى

يتيما — أوى

ضالا — هدى

عائلا — أغنى

وهذه الثنائيات لها ارتباط وثيق في فاتحة السورة بالقسم بالضحى والليل إذا سجي ، (فالآخرة والإيواء والهدى والغنى) كلها تمثل جهة النور والاستبصار في ضوء النهار ، وهي ما يسعى إليه كل من أراد الآخرة وترك ظلمات الدنيا وملذاتها التي تؤدي إلى الهاوية ، كما أن (الأولى ، واليتيم ، والضلال ، والعول) مما لا يرغب الإنسان السوي أن يقع فيها أو أن يصاب بواحد منها إذ هي تمثل ظلمة الليل الساجي الذي يتيه في ظلمته السائرون .

فضلا عن أن هذه السورة جاءت تسليية لرسول الله إذ فيها من المبشرات والمكرمات ما تطمئن به نفسه بعد أن أصابها من الحزن والأسى الكبيرين ، وفي مقدمة تفسير هذه السورة يقول سيد قطب : ((هذه السورة بموضوعها ، وتعبيرها ، ومشاهدها وظلالها وإيقاعها ، لمسة من حنان ، ونسمة من رحمة ، وطائف من ود ، ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع ، وتنسم بالروح والرضا والأمل ، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين ، إنها كلها خالصة للنبي ، كلها نجاء له من ربه وتسرية وتسليية وترويح وتطمين ، كلها أنسام من الرحمة وانداء من الود ، وألطف من القربى ، وهدهدة للروح المتعب وال خاطر المقلق ، والقلب الموجوع))^(٣٨) .

الغاية

إن لغة القرآن هي لغة قصدية في استعمال الألفاظ والتراكيب ، والقسم في هذه السور (بالنجم والقلم والضحي) له دلالاته العميقة وأثاره البيانية التي بينا جزء منها في ما يتعلق بشخصية الرسول ، فهي سور اتحدت في تنزيلها في كونها مكية ، واتحدت بحرف القسم وهو الواو وقد ارتبطت القسم في فواتح هذه السور بجوابه المتعلق بشخص الرسول الكريم ، فكل فاتحة كانت بمثابة التمهيد لما ستعرضه من مواضيع تخاطب هذه الشخصية الربانية ، فكانت هناك الكثير من الدلالات الإيحائية من القسم بهذه الألفاظ ومدلولاتها دون غيرها ، فكل قسم جاء مناسباً تماماً لجوابه التعلق بجانب من جوانب حياة النبي ، بحيث لو استبدلنا القسم بلفظ آخر لما جاء التعبير على هذا البيان البديع ، وهذا ما يجعل أصحاب البيان يقفون إجلالاً وتعظيماً لهذا التعبير القرآني الرائع ، والله الموفق للصواب .

الهوامش

- (١) سنن الترمذي : ٢٤٥/٤ .
- (٢) طه : ١١٧ .
- (٣) هود : ٤٨ .
- (٤) الصافات : ١٠٤ .
- (٥) الأنفال : ٦٤ .
- (٦) الأحزاب : ٤٥ .
- (٧) المائدة : ٤١ .
- (٨) النجم : ١ .
- (٩) النجم : ٢ .
- (١٠) الكشف : ٥٦٠/٢ .
- (١١) ينظر جامع البيان : ١١/٢٢-١٣ ، والدر المنثور : ٦٩٢/٧ .
- (١٢) معاني القرآن : ١١٢/٣ .
- (١٣) مجاز القرآن : ٢٤٢/٢ .
- (١٤) غريب القرآن : ٤٣٦ .
- (١٥) ينظر تفسير مجاهد : ٦٣٦ ، وجامع البيان : ١٧٧/٢٧ .
- (١٦) الحج : ١٨ .
- (١٧) معاني القرآن وإعرابه : ٩٦/٥ .
- (١٨) الكشف : ٧٣٥/٤ .

- (١٩) البحر المنيد : ٤٣٤/٨ .
- (٢٠) الواقعة : ٧٦ .
- (٢١) الإعجاز البياني للقرآن : ٢٥٠ .
- (٢٢) القلم : ١ .
- (٢٣) ينظر البرهان : ١٧٢/١ .
- (٢٤) ينظر بحر العلوم : ٢٤٩/١ - ٢٥٠ . والجامع لأحكام القرآن : ١٥٤/١ .
- (٢٥) ينظر بحر العلوم : ٤٥٨/٣ .
- (٢٦) المصدر نفسه .
- (٢٧) ينظر التبيان في أقسام القرآن : ٢٠٧/٢ .
- (٢٨) العلق : ١-٥ .
- (٢٩) القلم : ٢ .
- (٣٠) القلم : ٣ .
- (٣١) القلم : ٤ .
- (٣٢) الإتقان : ٦٢/١ .
- (٣٣) الإعجاز البياني للقرآن : ٢٤٤ .
- (٣٤) لسان العرب (ضحا) ٤٧٤/١٤ .
- (٣٥) ينظر جامع البيان : ٣١٤/٢٦ ، والمحزر الوجيز : ٤٦٤/٥ ، وفتح القدير : ٤٥٧/٥ .
- (٣٦) الضحى : ١-٣ .
- (٣٧) الإتقان : ٤١٤/٢ .
- (٣٨) في ظلال القرآن : ٣٩٢٥/٦ .

المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق - دراسة لغوية بيانية-، الدكتورة عائشة عبدالرحمن بنت الشاطي، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٤م.
٣. بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، تحقيق: د.محمود مطرجي، دار الفكر - بيروت.
٤. البحر المنيد، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢ م - ١٤٢٣ هـ.
٥. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

٦. التبيان في أقسام القرآن ، ابن القيم الجوزية ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٢م .
٧. تفسير مجاهد بن جبر ، تحقيق : محمد عبدالسلام أبو النيل ، نشر دار الفكر الإسلامي الحديثة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ .
٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : محمود شاكر ، نشر مكتبة البابي الحلبي ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٨هـ .
٩. الجامع لأحكام القرآن ، شمس الدين القرطبي ، تحقيق : هشام سمير البخاري ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م .
١٠. الدر المنثور ، جلال الدين السيوطي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٣م .
١١. سنن الترمذي ، محمد بن عيسى الترمذي ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
١٢. غريب القرآن ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، تحقيق : أحمد صقر ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
١٣. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي الشوكاني ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٣م .
١٤. في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، الطبعة العاشرة ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
١٥. الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، جار الله الزمخشري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
١٦. لسان العرب ، محمد بن منظور ، دار صادر ، بيروت .
١٧. مجاز القرآن ، أبو عبيدة معمر بن مثنى ، تحقيق الدكتور فؤاد سزكين ، مطبعة الرسالة ، مصر ، ١٩٥٤ م .
١٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ابن عطية الأندلسي ، تحقيق : عبدالسلام عبدالشافى محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .
١٩. معاني القرآن ، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ، تحقيق: محمد علي النجار وآخرين ، دار السرور .